أهمية دور الأمومة والأبوّة في بناء الأسرة المسلمة

د. عدنان علي رضا النحوي

إنَّ الأمومة وما تحمل في فطرتها من غرائز وميول وقوى ، وكذلك الأبوّة، آية من آيات الله . وجوّ الأسرة الذي يبنيه الإسلام فضل من الله ورحمة . وهذا كلّه هو الذي يغرس الغرسات الأولى مع الشهادتين في فطرة الطفل الذي يخرج إلى الدنيا صفحة بيضاء نقيّة ، لا يعلم شيئاً إلا ما حوته الفطرة التي فُطِر عليها ، ثمَّ يبدأ يتلقّى الغذاء بعد الغذاء والعلم بعد العلم ، في مراحل نموّه المختلفة في حضن الأسرة المسلمة ، عن طريق السمع والبصر والفؤاد :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

ونرى من هذه الآية الكريمة نواحي متعددة من الإعجاز ، كان من بينها ترتيب الحواس ودورها في نموّ الطفل ، حين جعلت الآية حاسّةَ السمع أوّل الحواس في الترتيب ، ليظلّ الطفل يتلقّى الأصوات .

ونلاحظ هنا كذلك ، من أجل تربية الطفل التربية العقدية الصحيحة ، أنه لا شيء يعدل دور الأم وحنانها ورعايتها لطفلها وإرضاعه وضمّه ، بما وهبها الله من خصائص لتقوم بدورها الكريم . إنه دور فريد رائع لا يمكن أن تُغْني عنه المربّيات والخادمات . ولا شيء يُغني عن دور الأب كذلك ، ولا عن دور البيت المسلم والأسرة المسلمة التي يشعّ فيها نور الإيمان وبركة الإسلام ، في شرعه ونهجه وأخلاقه . فلا يتعلم الطفل من الشعر وحده ، ولا من القصّة وحدها ،

ولكن من جوّ الأسرة المسلمة ، من الأمومة والأبوة والروابط الإيمانية ، وما تُضفي في جوّها من حياة طاهرة غنيّة ، يأخذ منها الطفل عاداته وكثيراً من زاده .

في هذا الجوّ تستطيع التربية والنصوص الإسلامية أن تُسهم وتؤدّي دورها في بناء العقيدة الصحيحة في الطفل . إنَّ هذا الجوّ الإيماني هو مدرسة الإسلام الأولى ، مقتدية بمدرسة النبوّة الخاتمة الفريدة في حياة البشريّة .

يمكن أن نوجز قضية تربية الطفل بأنها عملية إعداد وبناء ليصبح قادراً عند بلوغه سنَّ الرشد على تحمُّل المسؤوليّة التي كلَّفه الله بها ، سليم الفطرة ، سليم الإيمان والتوحيد ، يحمل العلم من منهاج الله قدر وسعه الصادق خلال مراحل نموّه .

إن أول ما يدخل أذن المولود هي شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ . فيكون أول كلمة تدخل فطرة المولود بالأذان هي الشهادتان ، كلمة تتجاوب مع فطرته التي فطره الله عليها ، تدخل الأذن وتمتدّ في كيان المولود ما شاء الله لها أن تمتد على سنن ربّانيّة ، لتنمّي غرسة الإيمان والتوحيد وصفاءَهما ، الغرسة التي وضعها الله في فطرة هذا المخلوق الجديد ، ولتصبح مسؤولية الإنسان ابتداءً بالوالدين مسؤولية مباشرةً عن رعاية الفطرة والعقيدة وسلامتها وصحّتها .

ثمَّ تمضي الشهادتان في حياة الطفل كلِّها تتردّد مع مراحل نموّه حتى بلوغه رشده وشبابه وكهولته وحياته كلها إلى أن يلقى الله ربّه عليها ، فيُلقّنها عند الموت. فعن أبي سعيد وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم عن الرسول ﷺ قال : « **لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** » [1] رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والنسائي .

فهذه الكلمة : " لا إله إلا الله " هي القاعدة الصلبة في التربية في الإسلام وهي تمثّل النهج والغاية . وهي تمثّل الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، وتمثّل الانطلاقة الأولى والهدف الربَّاني الأول للمسلم في تبليغ دعوة الله للناس كافَّة . وإنها لإحدى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم أن نبَّهنا إلى نشاط حاسة السمع لدى المولود ولو لم يدرك المعنى . ولكن الصوت وأمواجه تترك أثرها

بطريقة ربانية . وقد ثبت علمياً اليوم أن حاسة السمع لدى الجنين قبل أن يولد تكون عاملة ، تتأثر وتستقبل الصوت . ويترك الصوت أثره في الجنين بطريقة لا يدركها العلم ، ولكن يعلمها الله ربّ العالمين .

وتقول د. آريان آيزنبرغ وزميلتاها في كتابهنّ : " ماذا تتوقع عندما تنتظر الجنين " : حيث إنَّ حاسة السمع عند الجنين تكون قد تطورت تطوراً كبيراً مع نهاية المرحلة الثانية أو بداية الثالثة ، فيصبح من الحقيقة أنَّ الأجنَّة عند أصدقائك يسمعون ما يدور من موسيقى ومن قراءات . ولكن ما هو تأثير ذلك في مقبل الأيام لم يتأكد حتى الآن . ويعتقد بعض الباحثين المختصين في هذا العلم أنه من الممكن إثارة الجنين قبل ولادته ليكون جنيناً متميّزاً [٢] .

ولذلك ينصح بعضهم بأن تقرأ الأم شيئاً يسمعه الجنين دون أن يعيَ المعنى، فيترك ذلك أثره . وكذلك الحديث الذي يجري في البيت بين الأبوين أو غيرهما قد يترك أثره . ويتّضح لنا هنا أهمية نقاء جوّ الأسرة وصفاء العلاقة بين الزوجين ، حتى تسود الكلمة الطيبة التي أمر الله بها ، والكلام الحسن الذي أمر الله به ، ليتلقّى الطفل وهو جنين أصوات الخير والكلم الطيّب ، وذكر الله ، واستمرار الدعاء ، وتلاوة القرآن الكريم وقراءة أحاديث الرسول ﷺ ، وأصوات الوداد والمحبَّة والكلم النقيّ .

كلُّ ما يجري في بيت الأسرة يمكن أن يؤثّر على الجنين بالصوت . لذلك حرص الإسلام على تنظيم جوّ الأسرة وتفصيل العلاقات بين أفرادها . وعندما يولد الطفل تظل حاسة السمع عاملة فيه دون أن يدرك معنى الأصوات التي تصله ، والتي تستقبلها أجهزة فطرته الأخرى بطريقة ربَّانيّة . فهو يتأثر بنفس الطريقة بحنان الأم وهدهدتها له ، ومناغاتها ، بين كلمات الحبّ العميق والحنان الشديد . ويتأثر بضمّه إلى صدرها ، وإرضاعها له ، حين تخرج الكلمات من الأم عفو الخاطر والبديهة ، فتلتقي الفطرة الصافية بالفطرة الصافية ، فينال الطفل الغذاء الصافي على جَرْس المناغاة ، لتكون النصّ الثاني الذي يتلقّاه الطفل .

فمن الذي يقوم بهذا الدور العظيم في بناء الإنسان : وهو نطفة وجنين

ومولود ويافع ؟! إنَّهما الوالدان : الأمومة والأبوَّة في جوٍّ إسلاميّ كريم للأسرة .

ويظهر لنا خطورة دور الوالدين وخطورة مسؤوليتهما ، وأهمية إعداد نفسيهما لهذه المهمّة والمسؤولية الخطيرة التي سيحاسَبان عليها بين يدي الله ﷻ .

إنَّ الطفل أمانة عظيمة بين أيدي الوالدين في مراحل نموّه المختلفة . فمن هنا يبدأ بناء الأمة ، من الطفل ، من مراحله الأولى حيثُ تُغْرسُ المعاني غرساً لا يذبل ولا يزول . فلا بدّ أن تتعاون قوى الأمّة كلّها على بناء الأسرة المسلمة الملتزمة بدينها ، الواعية لمسؤوليّاتها ، الخاشعة لربّها .

إنّ هذا الجوّ الإيمانيّ هو الذي يُحْسن اختيار النصوص المناسبة من مصادرها الإسلاميّة الغنيّة ، ليسعد الطفل بالنغمة الحَلوة والجرس النديّ والزاد الكريم الغنيّ مع كلّ مرحلة من مراحل نُموّه .

إنَّ هذا الجوّ الفريد يقوم على الأمومة والأبوّة وأهمية دور كلّ منهما في التربية والبناء ، دوراً لا يُغني عنه سواهما .

ولقد أخطأ الغرب كثيراً حين دفع المرأة إلى ميادين العمل المختلفة كلها ، لمشاركة الرجل تحت شعار مساواة المرأة بالرجل ، فَتَفَلَّتَت الأسرة ، وغابت الأم عن دورها ، والأب عن دوره ، وواجه المجتمع العلمانيّ من ذلك مشكلات خطيرة تتزايد مع الأيّام ، مشكلات اجتماعية وتربويّة ونفسيّة واقتصاديّة وفكريّة وأخلاقيّة ، جعلت من حضارته المادية القويّة مصدر فتنة في الأرض وفساد ، وحروب ومجازر ، وعدوان ومظالم . إنها مشكلات ما زالت تضغط على مجتمعاتهم وتتزايد كلّما تقدم الزمن بهم . ولا أشكّ في أنه ستأتي اللحظة التي يضطرّ فيها المجتمع العلماني إلى أن يبحث له عن مخرج من ذلك .

وإن تقليدنا للمجتمعات العلمانية في دفع المرأة خارج البيت لتنافس الرجل في مختلف الميادين ، سيورثنا المشكلات الخطيرة نفسها ، ويزيدنا ضعفاً على ضعف .

إننا نرى أن جميع مظاهر الحضارة الحديثة من صناعة وعلوم ، وعمائر ووسائل

الرفاهية المتزايدة ، لم تستطع أن تصلح الإنسان ، بل ارتكبتْ أفظع الجرائم البشرية في ظلّ هذه الحضارة التي ألقت (١٥٠) مليون طفل مشردين في الأرض تحت خطر الموت جوعاً وعرياً وجهلاً ، الحضارة التي أثارت حروباً لا تكاد تنتهي ، حتى كأن الأرض اليوم ساحة مجازر وتهديم وإفناء ، وعدوان بعد عدوان .

إن مصدر الفتنة في حضارة الغرب اليوم انهيار معاني الإيمان والتوحيد في جوّ الأسرة منذ زمن طويل ، وحرمان الطفل من حضن أمه وأبيه . فكثير من الأمهات شغلتهنّ الدنيا والانغماس في ميادينها ، تاركات الأطفال في البيت لمعاهد الحضانة أو الخادمات أو المربيات .

ولو أدركت المرأة حقيقة دورها كأمّ في الحياة الدنيا ، وفي تربيتها لأطفالها ، وعظمة الرضاعة ودورها في تربية الأطفال ، وأهمية حنانها وضمّ طفلها لصدرها ومناغاته ، وجمال رعايتها كلّها ، لو أدركت حقيقة عظمة هذا الدور وحاجة البشريّة كلّها إليه ، لما طلبت الوظيفة خارج البيت دون مسوّغ من شرع الله ، ولا تركت أطفالها لرعاية غيرها . ولكنّه النظام الاجتماعي العلماني الذي نظّم المجتمع على صورة يُحْرَم الطفلُ بها من أمّه ، ويُمزّق روابط الأسرة، ويزيل جوّ الأسرة الإسلامي الذي شرعه الله .

والأمر العجيب أن ينتبه الرجل الشيوعي رئيس الاتحاد السوفيتي السابق " جورباتشوف " إلى هذا الخطر الذي يهدّد المجتمع الإنساني ، وذلك في كتابه " البيروسترايكا " حيث يقول : « ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المتميزة المختلفة بدورها أمّاً وربّة أسرة ، كما كدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل عنها مربّية للأطفال ... » .

ويتابع قوله : « ... فلم يعد لدى المرأة العاملة في البناء وفي الإنتاج وفي قطاع الخدمات وحقل العلم والإبداع ، ما يكفي من الوقت للاهتمام بالشؤون الحياتية اليومية ، كإدارة المنزل وتربية الأطفال ، وحتى مجرّد الراحة المنزلية . وقد تبيّن أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والشباب ، وفي قضايا خلقية واجتماعية وتربوية

وحتى إنتاجية ، إنما يتعلق بضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية » [٣] .

يجب أن يدرك الأب والأم أنَّ من أوَّل واجباتهما في الحياة الدنيا ، وأول مسؤولياتهما التي كلفهما الله بها هو رعاية الأطفال وإعطاؤهم الوقت الضروري لحسن تعهدهم . وإن الإخلال بذلك يهدّد الأسرة كلّها ، وبذلك يهدّد المجتمع المسلم ، ويسهّل تسلّل الانحرافات فيه . إنَّ الإخلال بذلك هو إخلال بالأمانة التي حملها الإنسان إخلالاً يؤذي البشريّة كلّها .

إنَّ في واقع المسلمين اليوم خللاً كبيراً دفعهم إلى التخلّف وإلى الهزائم والمذلّة والهوان . وإنَّ معالجة هذا الخلل يجب أن يبدأ بالطفل وتربيته ، وبالأسرة وتماسكها ، وتأتي بعد ذلك ومعه الخطوات الأخرى .

إنَّ معالجة واقع المسلمين اليوم أمر حيويٌّ ضروريٌّ لحماية الأمّة في حاضرها ومستقبلها . وإذا قلنا إنَّ المعالجة تبدأ بالطِّفل ، فإننا نؤكد كذلك أنَّ رعاية الطفل الرعاية الإسلامية يجب أن تكون جزءاً من خطة عامّة شاملة ، تشمل الميادين كلّها والأنشطة كلّها منطلقين من منهاج الله الذي يوفّر لنا الخطة والنهج حين تتوافر النية الصافية والعزيمة الصادقة .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٥١٤٨) .

(٢) Dr. Ariene Eisenberg and two others :" what to expect when you are expecting" 2nd ed. 1991 : (page ; 183)

(٣) جورباتشوف : البروسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع ترجمة أحمد محمد شومان وإخوانه ، ص: ١٦٦.



للمشاركة على بريد القراء

Leserbriefe@alraid.net